

الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية

رواية الحريق لمحمد ديب عَيْنَةً

The Algerian novel written in French, the fire novel, Mohammed Dib is a sample

أسماء دولات *

أ.د عبد العالي بشير *

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2024/01/29	تاريخ الإرسال: 2023/06/30
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية التي عُدَّت مجالاً أدبياً خصباً أفرزته سياقات متنوعة، حيث نزت أقلام مبدعيها معبّرة عن آلام المجتمع الجزائري إبّان الاحتلال، ومن أهمّ هذه الروايات رواية: "الحريق" لمحمد ديب التي تروم قراءة الأبعاد الدلالية لأحداثها وشخصياتها، وإبراز صورة الحياة الاجتماعية في الريف وسط الفلاحين، وتبيين الدلالات والرموز التي تضمّنتها. باعتبارها عملاً فنياً كان ولا يزال من أهمّ إرغاصات الوعي التحرري، وقد اتّسمت شخصيات الرواية بأنها مقاتلة وفدائية وواقعية، كما أنّ أحداثها قد صبغت بحلّة فريدة تحكّم تسلسلها في جعل البطولة مشتركة بين شخصياتها، ممّا جعل هذا العمل الأدبي عملاً مائزاً.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الجزائرية، المكتوبة بالفرنسية، الحريق، محمد

ديب.

* المركز الجامعي مغنية/ selsabile21@gmail.com

* جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان/مخبر الدّراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب

العربي/ abdelaibachir@yahoo.fr

Abstract:

This research paper main's aim is to introduce the Algerian novel written in French. It is considered as a fertile literary field produced by various contexts, where the pens of its creators bled expressing the pain of Algerian society during the colonization period. Among the most important of these novels we have the one at hand; namely; "The Fire" that contains an image of social life in the countryside among the peasants, and an explanation of the Algerian indications and symbols. As a work of art, it was and still is one of the most important precursors of liberation consciousness, and the characters of the novel were identified as fighters, guerrillas, and realistic, and its events were formulated in a unique manner that governs its sequence in making heroism common to its characters. The latter made this literary work an outstanding work that deserve being explored.

Key words: Novel, Algerian, written in French, fire, Mohamed Dib.

*** **

المؤلف المرسل: أسماء دولات selsabile21@gmail.com

1. مقدمة:

قبل الخوض في الحديث عن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، نحاول في البداية تعريف الرواية باعتبارها جنسا أدبيا "لقد ظهرت الرواية مع بداية مرحلة التشكيل البرجوازي للمجتمع الأوربي الحديث، ويعتمد هذا الجنس على النثر باعتباره أداة في عرض وقائع الحياة ضمن سياق حكاية متخيلة"¹ فهي إن صح التعبير عبارة عن ثمرة للبنية الواقعية السائدة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية على السواء، وهي على حد قول الدكتور عباس إبراهيم عمل مؤثر ومتأثر يستفيد من المحيط² والرواية بمعناها العام هي قصة نثرية طويلة تصور شخصيات فردية من خلال سلسلة من الأحداث والأفعال معتمدة على السرد وعنصر التشويق³.

بعد تعريف الرواية يحق لنا أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: هل يمكن تصنيف الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية ضمن الرواية الجزائرية. للإجابة عن هذا السؤال نقول لقد انقسم النقاد والدارسون الجزائريون إلى فئتين. فئة ترى أن الرواية

المكتوبة باللغة الفرنسية هي رواية جزائرية لأن الكتاب الجزائريين في حقبة الاستعمار تعلموا اللغة الفرنسية في المدارس وكانوا يتقنونها نطقا وكتابة وبالتالي كانوا مجبرين على الكتابة بها. وهناك معيار آخر يمكن الاعتماد عليه في إثبات جزائرية الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية، الأمر هنا يتعلق بالموضوعات التي عالجتها والتي لها صلة وثيقة بحياة المواطن الجزائري. أما الفئة الثانية فترى أنه لا يمكن تصنيف هذا الجنس من الرواية ضمن الأدب الجزائري معتمدين بالدرجة الأولى على مقياس اللغة.

اتبعنا في ورقتنا البحثية هذه المنهج الوصفي التحليلي وذلك من خلال وصفنا لأحداث وتحليل شخصيات الرواية.

ونحن نرى بدورنا أن الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية هي جزء لا يتجزأ من الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، لأنها جسدت معاناة المجتمع الجزائري، إذ اتخذوا منها منبرا للدفاع عن وطنهم وشعبهم وقضيتهم، فلم يكن الميول للكتابة باللغة الفرنسية تباهيا باللغة الفرنسية كلفة أو إعجابا بالحضارة الغربية، وإنما جاءت كنتيجة للظروف التي كانت تعيشها الجزائر آنذاك، ومثيلاتها في سيطرة الاستعمار، من تجهيل، وترسيخ للغة الفرنسية، ومحاربة العربية ليس أمرا سهلا فهذه الكتابات كانت نتيجة لتلك الحقبة، ويرى الدكتور عبد الله الركيبي "أن هناك فرقا ملحوظا بين الأدب الذي كتبه الجزائريون، وبين ما كتبه الفرنسيون، وإن كان بلغة واحدة، وفي بيئة واحدة، وهذا الفرق الذي يتمثل في الرؤية"⁴.

2. أسباب ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

من بين أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية البيئة التي فرضها الاستعمار الفرنسي على المجتمع الجزائري، والتي كانت أبشع مما يتصور عقل الإنسان، فقد سلب المستعمر الفرنسي على الشعب الجزائري مختلف أنواع الذل والهيمنة من أجل تشديد القبضة عليه. وقد قامت استراتيجية الاستعمار الغاشم على حربين، الأولى هي حرب إبادة مادية تمثلت في الاستيلاء على الأراضي الجزائرية وتعميرها بالعنصر الأوربي لتكون الجزائر مستوطنة غربية⁵ مما دفع الجزائريون إلى الهجرة من أراضيهم، ومن جهة أخرى محاربة الشعب الجزائري من خلال استعماله

لشقى وسائل الدمار، فأهلك الحرث والنسل والزرع، وتسبب في مجاعات أودت بحياة مئات الآلاف من الأرواح الجزائرية البريئة. ولم تكن الحرب الثانية أرحم من الأولى بل كانت الأفتك والأشرس والأكثر تدميرا لأنها استهدفت ضرب القيم المعنوية والروحية للمواطن الجزائري وهدم البنايات الثقافية الاجتماعية للشعب، فكان هدفهم محاصرة الإسلام وتقليص رقعته وإضعافه بإدخال الجزائريين في المسيحية وتطويق الثقافة الإسلامية: وتغيير معالمها، وهذا في نطاق فرنستها.

دون أن ننسى أنه من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية هي محاربة اللغة العربية وذلك من خلال فرض التعليم باللغة الفرنسية، والاكتماء بتعليم اللغة العربية في المساجد فقط، وهذا كله لجعل اللغة الفرنسية لغة رسمية يتعامل بها في مختلف المجالات. وقد صرح دورفيكو Dorvico سنة 1832 قائلاً: "أرى أن نشر لغتنا هي الوسيلة الأكثر فاعلية لفرض هيمنتها في هذا البلد"⁶. فراحوا يتعلمون في تلك المدارس الفرنسية، وانكبوا على دراسة تلك اللغة والاعتراف من مناهل ثقافتها مما ساعدهم على إبداع أدب إنساني عالمي. وقد اتخذ الجزائريون من اللغة الفرنسية سلاحا يستعملونها لرفع الظلم والاستبداد المسلط عليهم، ولم يجد الكاتب الجزائري أسلوبا أكثر شرحا وإبانة وتوسعا سوى الأسلوب الروائي واللغة الفرنسية اللذان استطاعا أن يصورا المعاناة والمأساة الحقيقية التي يعيشها المجتمع الجزائري.⁷

كما لا ننسى أن من الأسباب التي أدت إلى ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية هي محاولة الاستعمار تضيق الخناق عليه، واستخدامه للشباب الجزائري كعمال في المناجم والقيام بالأعمال الشاقة، مما أدى إلى ظهور طبقات في المجتمع، وأيقظ حركة التحرر لديهم فهذه كلها أسباب اجتماعية واقتصادية أدت على ظهور أدب جزائري قومي باللغة الفرنسية.

خلاصة القول إن كل تلك الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي سادت في الجزائر إبان الاستعمار كان لها الدور الحاسم في ظهور وشهرة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ويرجع الفضل إلى الكتاب الجزائريين في إيصال المعاناة الحقيقية للمجتمع الجزائري إبان الثورة الجزائرية المجيدة وكانت

مقاومتهم له بالقلم والفكر مساندة للمقاومة بالسلاح. وإن اضطرار الكتاب الجزائريين إلى استخدام اللغة الفرنسية في كتاباتهم لم يكن مجرد صدفة، بل جاءت بعد أن أحسوا أنهم صاروا يسيطرون عليها، ويتقنونها إتقاناً جيداً، وهي حقيقة فرضتها تلك الظروف القاسية، فحتمت على اللغة الفرنسية أن تقوم بالدور الذي كان يجب أن تقوم به اللغة العربية ذلك لأن الجزائر لم تعيش في تلك الفترة في ظروف طبيعية وحرمت من لغتها الأصلية، والكتاب الجزائريون قد جعلوا منها ملاذاً للتعبير عن تلك الروح الجزائرية وقيمها عوضاً على أن تكون أداة للتشويه ومع ذلك لم يتمكن المستعمر الفرنسي من تجريد الجزائريين من شخصيتهم.⁸

3. مكانة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ميدان من الميادين الخصبة، إذ أنها نالت الاهتمام الأكبر من قبل كبار الأدباء والنقاد منهم من هم جزائريون ومن هم من هم مشاركة، نذكر منهم: عبد الله الركيبي، أحمد منور، سعاد خضر وآخرون والسبب الذي جعل هؤلاء النقاد يهتمون بدراستها، لأنها ظاهرة فريدة من نوعها في عالم الأدب وقد ارتقت وتطورت إلى مصاف الآداب العالمية نتيجة لاجتيازها لعدة مراحل مختلفة. لقد ظهرت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية أو ما يعرف بالرواية ذات التعبير الفرنسي بمعايير فنية المعروفة بها حتى عام 1950 مع رواية "ابن الفقير *Le fils du pauvre*" لمولود فرعون الذي صور لنا حياة الفقر والعوز التي عانى منها الفلاح الجزائري المظلوم بالقرى، ورواية "الأرض والدم *La terre et le sang*" 1935 للكاتب نفسه؛ ثلاثية محمد ديب *trilogie* التي تتكون من ثلاث روايات: الدار الكبيرة، الحريق، مهنة الحياكة *La grande maison*، 1952، و *le tisser metier* و *l'incendie* 1954، 1957.

وقد صدرت في هذه الفترة أيضاً أعمال روائية أخرى، نذكر منها رواية نوم العادل *le someil de juste* سنة 1955، ونجمة *Nedjma* لكاتب ياسين 1956، والروايتان تصوران ظاهرة البؤس والحرمان والظلم الذي كان يعاني منه الجزائريون.

وتقف كتابات محمد ديب وكاتب ياسين على رأس هذه الأعمال التي جسدت الواقع المر الذي يعيشه الشعب الجزائري، عموماً، وقد حاول كتاب هذه الفترة البحث عن حيل وأساليب تكون أكثر فعالية ومبسطة لتصل إلى الجمهور للمساهمة في تحريك النضال الثوري.⁹ وقد اخترنا رواية الحريق لمحمد ديب عينة للدراسة التطبيقية.

إن الحديث عن موضوع الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية هو موضوع شاسع ومتشعب فأدبهم لم يكن ناجماً عن حالة نفسية مرتاحة، وإنما هو نابع عن نفس جريحة متألمة، بعد أن استنزف المستعمر خيراتهم فضلاً عن الجهل والامية اللذان كان يتخبط فيهما الشعب الجزائري البائس فكانت روايات هؤلاء أشبه بالطير الجريح الذي كان ينزف دماً.

4. تقديم لرواية الحريق:

تعدّ رواية الحريق رواية من أهم الأعمال الروائية للكاتب الجزائري محمد ديب، وهي الجزء الثاني من أحداث الثلاثية وعنوانها الأصلي باللغة الفرنسية *l'incendie*، صدرت في سنة 1954، أثناء اندلاع الثورة الجزائرية المباركة، عدد صفحاتها بالطبعة الأصلية مائة وتسعون 190 صفحة، وهي من منشورات دار لوساي *Édition le seuil*، وقد أعيد طبعها سنة 1960 بعد أن أدخلت عليها بعض التعديلات، وقد ترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور سامي الدروبي سنة 1960 قد قسم محمد ديب مادتها الرواية إلى ستة و ثلاثين فصلاً، واختزلها المترجم في الطبعة المترجمة إلى ثلاثة وعشرين فصلاً ولم يحدث هذا الاختلاف في بناء الرواية فهو خاضع لنظام الزمن التصاعدي وهو التقليد المعروف في الروايات الواقعية.¹⁰

تدور أحداث الرواية في قرية قرب مدينة تلمسان تدعى بني بوبلان فهي تصور الحياة الاجتماعية في الريف وسط الفلاحين وعلاقتهم بالمستوطنين الذين سلبوهم أراضيهم، ونجد الطفل "عمر التلمساني" الذي يبلغ من العمر إحدى عشر ربيعاً قد انتقل من المدينة إلى الريف رفقة "زهور" بنت الجيران التي قصدت بني بوبلان لزيارة أختها خلال العطلة الصيفية، وهناك شعر "عمر" بجو من السعادة لم يتعود عليهما من قبل، أندھش "عمر" أن تكون الحياة جميلة بهذه السهولة فقد لاحظ فرقاً كبيراً بين

المدينة والريف، فهنا على الأقل الريف قد تخلص من مشكلة تديره قطعة خبز ليسد بها جوعه، لأنه كان يأكل حتى يشبع، فالسيد "قارة علي" زوج السيدة "ماما" أخت "زهور" كان رجلا ميسور الحال يعيش مما تدره عليه أرضه.¹¹ وما زاد من غبطة عمر التقائه بأقرانه من أبناء الفلاحين الذين كان يؤثر التجوال معهم في أراضي بني بوبلان الدافئة، "لقد التقى عمر هناك بأطفال أكثر شقاء منه، أطفال كانت لهم هيئة الجراد من فرط هزلهم ونحولهم."¹²

وقد نشأ "عمر" بالريف بعيدا عن المدينة إلى أن قابل ذلك الرجل الذي يسمى "الكومندار" الذي حدثه كثيرا عن أرض "بني بوبلان" فقد "كان الصبي يترك النساء والرجال ليلحق بال حياة الكبرى التي يحياها العالم، كان الشيخ كومندار يعلمه الكلام الذي يجب أن يعلمه عن الخليفة "كان يجالسه ساعات طويلة وينصت له. وهوي يحدثه عن أرض بني بوبلان وسكانها الذي حل عليهم الحزن والألم بعد أن سلبت منهم أراضيهم، وعن نساءها اللواتي يذبل جمالهن يوما بعد يوم، وعن البطالة والجوع اللذان يعاني منها الفلاحون، وعن الجدة "أم الخير" التي عاشت تنعم بالحرية قبل مجيء الاستعمار.

لكن الغريب في حديث الكومندار لعمر كان عن ذلك الحصان الطائر الذي رآه الفلاحون يعبر بني بوبلان يقول الكومندار للطفل: "استقر بعضهم أمام أكواخهم فرأوا تحت أسوار المنصورة حصانا أبيض بلا سرج ولا لجام، لا فارس ولا عدة، يهتز عرفه بعدو جنوني... بهرهم بياضة، وغار الحصان العجيب في الظلام."¹³ ورغم دهشة الفلاحين لرؤيته إلا أنهم تفاءلوا منه خيرا ورأوا فيه رمزا لحرية الجزائر، وقالوا لأنفسهم: "عدوا في الليل يا حصان الشعب، عدوا إلى الشمس والقمر في ساعة النحس ونذير الشؤم."¹⁴ فالحصان هو رمز للقوة والقدرة والنبيل، كما أنه أيضا رمز للحرب والحرية والشجاعة.¹⁵

ومن خلال تعمقنا في الحوارات التي كانت تدور بين الكومندار وعمر، نرى أن الشيخ هو رمز للأصالة المتمسكة بأرضها، والطفل هو رمز الأمل لمستقبل أفضل في الجزائر.¹⁶

وصورت لنا أيضا رواية الحريق عالم الفلاحين المضطهدين والحالة التي آلوا إليها بعد وصول المعمرين إلى قريتهم، وقد أثار محمد ديب في هذه الرواية إقامة القانون الجديد الذي سمح بحجز الأراضي الجماعية، وإقامة الناس في الأماكن الضيقة، كما نص على إلغاء أملاك الحبوس.¹⁷ وبعد هذا الإجراء التعسفي الذي فُرض على الفلاحين الذين صاروا يحسون بالضجر والملل من جراء الأوضاع القاسية صار حلم استرجاعهم على أراضيهم لا يفارقهم، مما أحيا لديهم الوعي بضرورة الثورة ضد سلوكات الفرنسيين وقد لعب "حميد سراج" دورا فعالا في بث روح المقاومة في الصفوف، بتنظيم التجمعات مع الفلاحين يقول في أحد اجتماعاته معهم: "إنما نحن اجتمعنا هنا لنتناقش معا في هذه المسائل، فليس الغرض من هذا الاجتماع أن يلقي واحدا منا خطابا طويلا وأن ينصت له الآخرون، يجب أن يشارك كل واحد في المناقشة وأن يبدي رأيه".¹⁸

ونلاحظ أن الفلاحين كانوا يتجاوبون معه في حواراته ويتفاءلون بها، يقول "بادعدوش" في إحدى المرات "إذا أمكن أن يتحد الفلاحون وسكان المدينة، أمكن الانتقال إلى عالم أسهل وكان الإعلان عن الإضراب بداية تنظيم الفلاحين لمظاهرات من أجل تسوية أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وقد اعتبره الفلاحون كدعوة مباشرة موجهة للمستعمر من أجل طرح كل إشكالاتهم ووضعها على طاولة النقاش. وقد تلا هذا الإضراب انتقام المعمرين من الفلاحين بحرق أكواخهم، لكن إصرار الفلاحين الذين اتخذوا بأفكار حميد سراج تركهم يقررون مواصلة الإضراب، وهنا تبلور الصراع بين الفلاحين والمعمرين *fellahs/colons*. وبدأ الوعي بالثورة يدب في قلوب الفلاحين المخلصين، نجد الكاتب في المقابل يرينا نموذجا من الخونة والمخادعين الذين باعوا أنفسهم وأبناء بلدهم ويرمز لهم الكاتب بشخص "قارة علي" الذي كان متواطئا مع الفرنسيين عند إشعال النيران في أكواخ الفلاحين.¹⁹

ومن الحديث عن الإضراب وأجوائه بين الفلاحين، يذهب بنا الكاتب إلى الحديث عن: "زهور" ويقظتها الجنسية، وهذا المحور يلعب دورا أساسيا في بلورة الوعي عند: "عمر" وذلك في اليوم الذي اكتشف فيه جسدها وهي تستحم بالنبع: "كان الصبي مثبتا نظراته على زهور وهي واقفة وسط النبع، وقد شممت ثوبها وراحت تصب الماء على

ساقها براحة يديها، كانت زهور منحنية لا تشعر بوجود عمر²⁰، كما أن النضج الجنسي الذي ظهر عند المراهقة صار مهددا من قبل زوج أختها "ماما" الذي حاول اغتصابها.²¹

وينقلنا الكاتب بعد ذلك إلى المدينة وبالضبط إلى دار سبيطار "ليصف لنا الحياة هناك بعد إعلان الحرب، فيروي لنا مغامرات: "عمر" بعد عودته من الريف، لتصدّم "عيني" بقرار السلطات بمنع السفر إلى المغرب لمن لا يملك رخصة.

وكما سبق لنا الذكر أن "حميد سراج" هو العقل المدبر للإضراب الذي شنه الفلاحون مما أثار غضب الفرنسيين، الذين باشروا بمداهمة القرية ونشر الرعب بين سكانها، وأخذ كل من يلاقونه في طريقهم من أبناءها، وقد تم اعتقال المناضل "حميد" وقاموا باستجوابه وباستنطاقه لكنه لم يعترف لهم بشيء، فلجئوا معه إلى أسلوب التعذيب والتنكيل من قبل الضباط إلى أن خارت قواه وصار لا يعي ما حوله، وركله أحدهم بحذائه الضخمين فاقتدى به آخرون، إن جسمه الآن ممد على البلاط، وضربات البساطير تهوي عليه من كل جانب.....أصبح الآن لا يرى شيئا الدم يقطر من عينيه.²²

ومن خلال دراستنا لهذه الرواية لاحظنا فكر فلاحي ببني بوبلان، قد تبلور إيديولوجيا وثوريا.²³ وقد ساهم في هذا الوعي البطل حميد سراج الذي كان يسعى إلى تنظيم ثورة شعبية موجهة ضد الاستعمار لتحرير أرض وطننا الحبيب، ونجد عمر ينتقل من المدينة إلى الريف أين يلاحظ الفرق الكبير بينهما، فلقد تعلم الطفل في بني بوبلان أشياء كثيرة فقد تأكد من أن الجزائر بلاد واسعة ذات حقول غنية، إنما فقط يجب أن توزع خيراتها بالعدل. وقد قسمت "نجاة خدة" في كتابها العمل الروائي عند محمد ديب "رواية الحريق" إلى ثلاث محاور متداخلة في بعضها البعض تشكل من خلالها الحبكة الأساسية للرواية وهي:

- يقظة الفلاحين السياسية.

- الأرض الغامضة والعجيبة والغريبة *

- اليقظة الجنسية المبكرة لدى زهور وعمر.

وإلى جانب هذه الأحداث الأساسية التي تشكل أعمدة الرواية، هناك العديد من الأحداث الصغيرة التي تكمل هذه الأحداث وتساهم في بناء الرواية كقصة الكومندار، وهي جزئيات تسهم كلها في بناء فضاء الروائي الخيالي، ويدخل ذلك كله ضمن السياق التاريخي المحدد.....، وهذه المرجعية موجودة ضمناً في رواية "الحريق"، وهذا نتاج الاهتمام بالواقعية بهدف إنتاج هذا الحدث الواقعي للقارئ.²⁴

وبعد هذا العرض السريع لمضمون الرواية وأهم أحداثها، نشعر الآن في دراسة عنصر من العناصر السردية التي ساهمت في بنائها يتعلق الأمر هنا بالشخصيات:

الشخصيات:

لقد وظف محمد ديب مجموعة من الشخصيات التي لعبت العديد من الأدوار المختلفة في روايته فكانت روايته زاخرة بالشخصيات التي تنوعت بين الجزائرية والفرنسية، وكل شخصية وظفها الكاتب محمد ديب في الرواية نجدها تمثل نموذجاً للواقع الحي إبان الاحتلال، إذ تجري أحداث الرواية في الريف الجزائري، فالشخصيات التي عرضها الكاتب في روايته جزائرية محضة، إذ اختارها أغلبها لتؤدي وظيفة الكشف عن الواقع المير الذي عاشه الشعب الجزائري آنذاك²⁵، ومن بين الشخصيات نذكر:

1. الطفل عمر: هو الشخصية الرئيسة، إذ يعد العنصر الموحد في الثلاثية، ويعرفه لنا الكاتب قائلاً: "إن لعمر ذهنًا يقظًا، وجسمًا سليماً، وهو الآن سائر في سن الحادية عشر من عمره، ليس وجهه بالجميل جمالاً خالصاً، غير أن فيه نعومة ورقة..... وكان عمر يملك غريزة عجيبة لا يمكن أن تخطئ"²⁶، كما وصف حيويته وهو في طريقه من المدينة إلى الريف "كان يقفز يرقص، يضحك وكان ضحكته ينفجر صاخباً... فإذا مرت سيارة كبيرة من سيارات النقل التي تلهث من فرط ما حملت، أخذ ينفخ نفخاً شديداً ليقبضها، وكان عمر يتمسك بها أحياناً فيقطع مسافة طويلة من الطريق"²⁷، فيسهل على القارئ تصوره في مخيلته وهو في حالة اللعب، أو متعلقاً بمؤخرة السيارة، فعمر هو من الشخصيات الرئيسة في كتاب الحريق، ويتقاسم الأحداث الاجتماعية والسياسية مع كل فئات وشخصيات الرواية²⁸. ونجدها متأثراً بأفكار الكومندار ومعجباً بالمناضل حميد

سراج مما جعله يفكر في ثورة على الأوضاع المزرية التي آل إليها الشعب الجزائري، فجيل عمري يمثل المرحلة الحاسمة والفاصلة التي ستفجر الثورة الكبرى.²⁹

2. الكومندار Commandar: يعد الشخصية الثانية البارزة في الرواية، وقد اكتسب اسمه هذا من الخدمة مع الجيش الفرنسي، ومنذ أن أصبح الناس يطلقون عليه كومندار ضاع اسمه الحقيقي من ذاكرتهم.³⁰ ويعد الكومندار بالنسبة للطفل "عمر" مرجعا إذ أنه يملك تجربة كبيرة في الحياة فقد تعلم منه أشياء كثيرة عن ريف "ببني بوبلان" وعن الجزائر المستعمرة ومصيرها، كما علمه حب أرض الوطن، وكيف يكون فخورا بانتمائه للجزائر، وكان لهذه الأفكار دورا كبيرا في بلورة الوعي لدى شخصية عمر.³¹

3. الفلاحون Les paysans: وهم يمثلون السكان الأصليين لببني بوبلان، يعيشون تحت الظلم والاستبداد الذي فرضه عليهم المستعمر الغاشم. يقضي الفلاحون أيامهم في الزراعة في أراضي المعمرين الذين كانت فيما مضى ملكا لهم، تجد في أنفسهم إرادة قوية ورغبة ملحة لاستعادة أراضيهم المسلوبة ويمثلهم الكاتب "بمعمر الهادي وسيد علي" وآخرون وهم الفئة الساخطة على الأوضاع المزرية التي يعيشونها ودائما كانوا يبحثون عن طريق يفجرون فيه غضبهم.³²

4. حميد سراج: شاب مثقف من دعاة الثورة يمثل الإيديولوجية الثورية والتي كان يهدف إلى نشرها في أوساط الفلاحين من أجل حماية مبادئهم وقيمهم الجزائرية والإسلامية، إن صورة البطل حميد سراج تمثل الشخصية الثورية الثائرة على المستعمر، فكل ما كان يسعى إليه هو النهوض من أجل استقلال الجزائر، وينتهي حضوره في رواية الحريق عندما يلقي عليه القبض من طرف الشرطة الفرنسية فيتم تعذيبه واستجوابه، وينقل بعدها إلى معسكر للاعتقال بالصحراء.

5. المرأة: احتلت المرأة في كتابات "محمد ديب" مكانا خاصا فهو يحبها ويحترمها، ويأسي لآلامها ومصيرها في بلد محتل، وفي رواية "الحريق": نجد الكاتب يركز على ثلاث فئات نسوية: الشابات والنساء والفلاحات.

وفي الأخير يمكننا القول إن الكاتب محمد ديب قد استقى شخصياته من الواقع الذي كان يمثل الثورة والأوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت وسائدة في فترة الاحتلال. وتؤكد سعاد خضر هذا الطرح فتقول: إن محمد ديب يستمد طاقته وموضوعاته الشعرية والأدبية من حياة الشعب الواقعية وقد انتزع الروائي من المجتمع الجزائري شخصيات تعيش حياة الفقر والبطالة والهجر، وأدمجها في روايته "33" كما أن الشخصيات البارزة في الرواية هي الشخصيات المقاتلة بدلا عن الشخصيات المتوقعة وكذلك الشخصية الفدائية بدلا من الشخصية الواعظة أما عن جانب الخيال فلا نجد له مكانا في الرواية وذلك على اعتبار أن الكاتب التزم بالقضية الوطنية وبواقع الجزائريين خلال عهد الاحتلال، فلا يمكنه أن يجعل الواقع بعيدا في رواية يعالج فيها قضايا كهذه.

وما يمكن استنتاجه أيضا أن تطور الأحداث هي التي جعلت الشخصيات تبرز في نسيج النص الروائي وتتطور، وهذا بحسب ما يتطلبه الحدث، فالبطولة في رواية: الحريق يتقاسمها عدة شخصيات يشارك فيها كلا من: عمر وزهور وحמיד سراج وعدة نماذج أخرى من الفلاحين وشخصيات وأخرى متنوعة.

5. خاتمة:

من خلال دراستنا هاته نخلص إلى جملة من النتائج أهمها:

* إن أدب الكتاب الجزائريين لم يكن ناتجا عن حالة نفسية مرتاحة وإنما كان نتاجا لنفس جريحة متألمة بسبب مستعمر غاشم مدمر لوطنهم ومستنزف لخيراتهم، دون أن ننسى الأمية التي تخبط فيه الشعب الجزائري آنذاك، فكانت هذه الكتابات أشبه بالجريح الذي يئزف دما ويتظاهر بالفرح.

* إن محمد ديب الإنسان هو محمد ديب الكاتب والشاعر والفنان الملتزم والثائر، فقد صورت رواية "l'incendi" بشكل فني المجتمع الجزائري الذي كان يعاني من وطأة

المستعمر، وأراد أن تكون هذه الرواية رسالة تحمل الواقع الجزائري للرأي العام العالمي، وكانت أيضا إرهابا للوعي الثوري الذي كان يدعو إليه الأديب.

*اللغة التي كتبت بها الرواية المترجمة هي لغة خاضعة إلى تراكيب سليمة في غاية الدقة وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن المترجم الدكتور: سامي الدروبي متقن للغتين العربية والفرنسية على حد سواء.

*تمثلت مهمة المترجم في نقل النص من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يتسنى لمحبي لغة الضاد قراءتها، وهذا ما وصل له الدروبي من خلال ترجمته الناجحة لرواية "l'incendie" التي لقت رواجاً في أوساط محبي الرواية المترجمة مما ساهم في رواجها وشهرتها، وبصفة عامة يمكننا القول بأنه قد أبدع في ترجمته.

*يبقى البحث في موضوع الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية كبير ومتشعب يحتاج إلى بحث أكثر، لأن هذا العمل الذي تناولناه يبقى بمثابة نقطة في بحر شاسع، لا بد لنا المواصلة في الحفاظ على هذا الموروث وذلك بدراسة وتحليل روايات أخرى من أجل بلوغ الهدف المنشود الذي حاول فيه المترجم أو صاحب النص الأصلي إيصاله للقراء على حد سواء.

6. الهوامش:

¹. محمد كامل الخطيب، الرواية والواقع، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1981، ص106.

². عباس إبراهيم، تقنيات البنية السردية في الرواية المغربية، ANEP، ط1، روية، الجزائر، 2002، ص29.

³. محمد بوزواوي، معجم مصطلحات الأدب، دط، الدار الوطنية للكتاب، الجزائر، 2009، ص156.

⁴. عبد الله الركيبي، القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الكتاب العربي، دط، -القاهرة- 1969- ص243.

⁵. أحمد المنور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2007، ص29.

⁶. Yvonne Turin Affrontements culturels dans L'Algérie coloniale, école, médecin, religion 1830-1880-ENAL, Alger, 1983, p40

⁷. محمد الجابري، الأدب الجزائري المعاصر، الجائزة المغربية للثقافة 2005، دار الجيل، دط، بيروت 2005، ص 135.

⁸. سعاد محمد الخضر، الأدب الجزائري المعاصر -دراسات أدبية نقدية، منشورات المركز الجامعي صيدا، بيروت 1963، ص 68.

⁹. المرجع السابق ص 99.

¹⁰. يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين، ط 2003، ص250.

¹¹. Mohammed Dib, la trilogie Algérie p150.

¹². Ibid, p138.

¹³. Mohammed Dib ,la Trilogie Algérie 145.

¹⁴. Ibid 155.

¹⁵. Mohammed Guéltarni Littérature du combat chez Dib ,KatebetFéraoun, ed , Dar el Gharb, Oran Algérie , 2006, p58.

¹⁶. Ibid , p39.

¹⁷. Jacqueline Arlaud , la littérature maghrébine de langue Française ,Publieur ,Paris , 1980, p177.

¹⁸. Mohammed Dib ,la Trilogie Algérie, P205.

¹⁹. أحمد سيد محمد، الرواية الانسيابية وتأثيرها عند الروائيين، المؤسسة الوطنية للكتاب، دط، الجزائر 1989، ص95-96.

²⁰. Mohammed Dib, la TrilogieAlgérie, P148 .

²¹. Najetkheda , l' œuvre Romanésque de Mohammed Dib, p23.

²². Ibid, p 228-229.

²³. يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط 2003، ص132

²⁴. نفسه، ص 147-244.

²⁵. Najet kheda , l' œuvre Romanésque de Mohammed Dib, p26.

²⁶. Mohammed Dib, la trilogie Algérie, p198.

²⁷. Ibid, p140.

²⁸. Chikhi Beida problématique de l' écriture dans,l' œuvre Romanésque de Mohammed Dib, p43.

²⁹. المرجع نفسه، ص45.

³⁰. أحمد عطية، البطل الثوري في الرواية الحديثة، وزارة الثقافة دمشق، 1977، ص43

³¹.Mohammed Dib ,la trilogie Algérie, p142.

³². يوسف الأطرش، المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط 2003، ص248.

³³. يوسف الأطرش، المرجع نفسه، ص13.